قيمة الفلسفة في ظل الثورة البيوتكنولوجية: البيو إتيقا في مساءلة العلم

The value of philosophy in the context of the biotechnology :Bioethics in the accountability of science

د/ زينب بومهدي *

أ/ فتيحة جلاب♣

تاريخ الإرسال: 2021/01/21	تاريخ القبول: 22 /2021/05	تاريخ النشر: 2021/11/20

الملخص:

يسعى كل من العلم والتكنولوجيا إلى تحقيق هدف أساسي وهو السعادة للإنسان لكن هذه السعادة تواجهها دائما نتائج عكسية مرتبطة بتطبيق العلم وتقنياته، وأصبح هذا الأمر يعرف طرحا متزايدا في العقود الأخيرة نتيجة التطور المتسارع للعلم الذي أوصلنا إلى درجة التماثل أو عدم التفرقة بين العلم والخيال العلمي ما أفرز مشاكل علمية ذات طابع أخلاقي أثارت الجدل الفكري والفلسفي مرة أخرى حول ماهية الخير والشر، إذ طرحت قضية الكرامة الإنسانية المنتهكة من قبل العلم كما طرحت أيضا قضايا قديمة جديدة في الفكر الفلسفي متعلقة بالطبيعة الإنسانية والحياة والموت والخلود طرحا معاصرا متزامنا مع الثورة البيوتكنولوجية و مستجداتها، وعليه تهدف هذه الدراسة إلى إبراز قيمة الفلسفة في تناول مثل هذه المواضيع.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، الثورة البيوتكنولوجية، البيواتيقا، القيم. الأخلاق

Abstract:

science and technology have fundmental goal happiness for man, but happiness is alwys counter-productive, linked to the opplication of science and technology, and this has become increasingly common in recent, decades as a result of the accelerating evolution of science, which has led us

المؤلف المرسل: زينب بومهدي zboumehdi88@gmail.com

* جامعة مولود معمري، تيزي وزو، zboumehdi88@gmail.com

♣ جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، f.djellab@univ-dbkm.dz

to the degree of uniformity or indifferention between science and science fiction that has created problems a scientific, ethical nature raised the intelletual and philosophical debate once again on wat is good and evil as the issue of human dignity, violated by science was raoised, and new oldissues were raised in philosopical thinking related to human nature life, death and eternity presented in a contemporary way that coinicides with the biotechnology revolution and its newcamers, this study aims highlight the value of philosophy and its role in analyzing such topics.

Key words: *The biotechnological revolution, Bioethics, Philosophy, Moral, Value,*

.*** *** ***

مقدمة:

لقد نظر الفلاسفة منذ القدم للطبيعة البشرية من وجهات نظر عديدة انطلاقا من المدارس الكلاسيكية "كسقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو"وصولا للمدارس الحديثة "كفرويد" و"داروين"، والشيء المشترك بين هذه المدارس الفلسفية أنها بحثت في مفهوم الطبيعة البشرية وأصله ولم تبحث عن كيفية التدخل في هذه الطبيعة البشرية وتحسينها أو تغييرها، لكن هذه الفكرة الأخيرة أخذت جل اهتمامات المدارس الفلسفية المعاصرة على يد "فرنسيس فوكوياما" الذي قدم رؤية جديدة شرح فيها وضع الطبيعة البشرية في ظل الثورة البيوتكنولوجية والمتمثلة في الانتقال من صناعة الأشياء إلى صناعة الكائن الحي(الاستنساخ، الهندسة الوراثية، أبحاث الجينوم...) والتي تسمح بتطوير النوع الإنساني وفق وتيرة تطوره الطبيعية بمساعدة التقنية، وتحدث فوكوياما كثيرا عن تلك الثورة التي تخطت في نظره الضرورة الطبية ودخلت في مجال تحسين النوع البشري وهذا ما خلف تركة لاأخلاقية تمس بقيمة الإنسان ككائن متغير مختلف وفي نفس الوقت تفرد بطبيعته، فشهد العالم بذلك ثنائية عكسية من منطلق تقدم علمي وتراجع أخلاقي، ولكن ما الذي يدعو إلى الخوف من هذه الثورة الجديدة؟ هل فعلا نحن أمام متاهة كونية علمية تفرض علينا ضرورة أخلقة العلم بكل فروعه وخاصة جوانبه المتعلقة بالإنسان؟ ما الدور الذي

يجب أن يلعبه الفيلسوف الحالي في قراءاته للنتائج العلمية؟ كيف يمكن أخلقة العلم؟ وما هي أشكال هذه الأخلقة؟

وهنا لابد من عودة الفلسفة باعتبارها محدد أخلاقي بيوإتيقي من منطلق أن الأكسيولوجيا أو مبحث القيم التي انحدرت منها البيوإتيقا مبحث من مباحث الفلسفة على غرار مبحث الأنطولوجيا أو مبحث الوجود والابستيمولوجيا أو مبحث المعرفة، وعليه نهدف من خلال هذه الورقة البحثية إلى طرح إشكال أساسي يتجاوز البعد العلمي البيوتقني إلى البعد الأخلاقي البيوإتيقي، وذلك بتحديد قيمة الفلسفة في خضم الشعار الخفي اللاأخلاقي للثورة البيوتكنولوجية دعوة منا لرسم الحدود الأخلاقية للتجاوزات البيوتكنولوجية ضد الطبيعة والكرامة البشرية، ولن يتحقق الردع لتلك التجاوزات دون الدفع من جديد بالفلسفة ومباحثها الأخلاقية لقمع الممارسات التي تحط من قيمة الإنسان على وجه العموم والفكر بشكل خاص.

2. في ضبط المفاهيم

1.2 مفهوم البيوتكنولوجيا

Biotechnologie هو مصطلح مركب من مقطعين: هما البيولوجيا biologie والتكنولوجيا technologie

والبيولوجيا من الناحية اللغوية تشير إلى علم الحياة: Science de la vie وهو اسم مؤلف من لفظتين: بيوس bios ولوغوس logos ومعناها العلم، والحياة: هي كل ذا نماء وهي نقيض الموت، أي التي تنفرد بخصائص تميزها عن غيرها من الجمادات، كالنمو، والتغذية،...إلخ، وتتناول البيولوجيا الحياة كشكل من أشكال حركة المادة وقوانين تطور الطبيعة الحية[1].

أما من الناحية الاصطلاحية فإن التصور الواضح للحياة هو الذي يوصلنا إلى المعنى الحقيقي لكلمة بيولوجيا، إلا أنه لا يوجد تعريف واضح لها، وهذا راجع إلى غموض وتعقيد الكائن الحي، وهو ما أدى إلى عدم وجود أدنى اتفاق بين المشتغلين في هذا الموضوع،

بل لا نجد حتى تعريف موحد للحياة، لذلك يصعب تعريف البيولوجيا من الناحية الاصطلاحية بدقة، لكون الحياة عبارة عن جوهر ميتافيزيقي، لكن تطور العلوم الفيزيوكيميائية المصحوبة بالاكتشافات التكنولوجية قد أثرت على نهوض وثورة علوم الحياة التي استطاعت بفضل منهجها التجريبي ودقة الوسائل التكنولوجية المستخدمة الولوج إلى عمق الكائن الحي بهدف معرفة حقيقة هذه الظواهر الحيوية التي لم يكن من بالأمر السهل الكشف عنها لأنها تحمل خصائص تميزها عن غيرها من الظواهر الجامدة، وهذا ما دفع العلماء إلى الاعتماد على الوسائل التكنولوجية من أجل التعرف على حقيقتها الحيوية[2].

وفي الشق الثاني نجد التكنولوجيا، من الناحية اللغوية: technologie هي كلمة يونانية الأصل، تنقسم إلى قسمين tchéchène ومعناها الفن والحرفة، وتعني logie علم الدراسة[3].

أما اصطلاحا فيعرفها لالاند: "أنها علم التقنية الذي يدرس الطرق التقنية من جهة ما هي مشتملة على مبادئ عامة، أو هي متناسقة مع الحضارة...ومن بين ما يهتم بدراسته هذا العلم دراسة تطور الطرق التقنية في أحد المجتمعات الإنسانية"[4].

2. 2 تعريف البيو إتيقا

La bioethique (البيواتيقا) هي كلمة صعبة أن نضعها في سياقات وذلك لاختلاف اللغات والثقافات والأصعب من ذلك حين نحاول حصرها في لغة معينة مثلا في اللغة الفرنسية هي مترجمة كما يلي ethique medicale dessciences duvivantou والأصعب من ذلك حين نترجمها إلى اللغة العربية فهي مترجمة كما يلي: أخلاقيات علم الأحياء أو أخلاقيات مهنة الطب وعلوم الحياة[5].

والبيواتيقا هي أخلاقيات علم الأحياء، أخلاق الطب الحيوي فهي متعددة التخصصات، فرغم كل ما قام به الباحثون إلا أنه يشمل دائما مجالات متعددة مثل علوم الصحة والعلوم البشرية، فكيفما كانت معاني البيواتيقا فإن التفكير في مجال البيولوجيا

كثيرا ما يصدم بتنوع القيم التي تميز المجتمعات ذات القيم المتنوعة، وهذا ما نجده في قاموس الفكر الطبي، فهو يعرض كل الاكتشافات التقنية والطبية عن تطور الطب والتقدم في التكنولوجيا الطبية سواء النافعة أو الضارة كما تتناول البيوإتيقا مواضيع مثل الجراحة التجميلية، الإرهاب البيولوجي، الاستنساخ، القتل الرحيم وإطالة الحياة...إلخ.

3 . البيو إتيقا والفلسفة

هناك ارتباط كبير بين البيوإتيقا والفلسفة، فالبيوإتيقا هي أساسا فكر أخلاقي جديد، أي تجديد لمبحث أساسي من فروع الفلسفة وهو الأكسيولوجيا، حسب التقسيم الكلاسيكي للفلسفة إلى ثلاثة مباحث أساسية وهي الأنطولوجيا أو بحث الوجود والابستيمولوجيا أو مبحث المعرفة، والأكسيولوجيا أو مبحث القيم، إلى جانب ذلك كان للفلاسفة دور كبير في نشأة البيوإتيقا وتطورها فبوتر وهيليغرز الذين يرجع إليهما الفضل في نحت مصطلح بيوإتيقا، ورسم المسار العام للفكر البيوإتيقي ينم عن ميول كل منهما للفلسفة والتي تتجلى في كتابتهما، كما لا يمكن إغفال الدور الكبير الذي قام به بعض الفلاسفة وعلى رأسهم دانيال كالا هان في إضفاء الطابع العلماني على البيوإتيقا[6] ؛ وبالتالي فصلها عن الأخلاق الطبية الكلاسيكية التي كانت غارقة في اللاهوت المسيحي.

يتجلى كذلك الحضور القوي للفلسفة في الفكر البيوإتيقي من جهة أخرى في تشكيلة اللجان الأخلاقية التي صاحبت نشأته وتطوره، فقد كان الفلاسفة من أبرز أعضاء هذه اللجان، وهكذا ظهرت شخصية جديدة وهي عالم الأخلاق، وهي شخصية علمية ترتبط بالأخلاق كفكر فلسفي وترفض الارتباط بها كفكر ديني، يمكن اعتبار أن أهم أثر تركته البيوإتيقا على الفكر الفلسفي هو مساهمتها في تحقيق حلم كان ويزال يراود بعض الفلاسفة، وهو انتقال هذا الفكر من النخب والجامعات لتهتم به كل فئات المجتمع، وبالفعل تبلور الفكر الأخلاقي الجديد خارج الجامعة مادامت هذه الأخيرة تريد أن تكون نخبوية، وترفض أن تكون شعبية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفكر البيوإتيقي على خلاف الفكر الفلسفي السابق لا يرتبط برموز معينة ولا حتى بمجال معرفي معين، فكل التخصصات بل وكل الفئات الاجتماعية تشارك في مناقشة القضايا البيوإتيقية، وليس الأطباء وحدهم والبيولوجيين وحدهم[7].

4 . التجاوزات الأخلاقية للثورة البيوتكنولوجية

إن الاقتراب من بعض انجازات الثورة البيوتكنولوجية يحمل في طياته طبا جديدا وتعليما طبيا مختلفا ورعاية صحية لا تتوافر أسسها في الوقت الراهن، كما أن ارتفاع معدلات الأعمار وإمكان القضاء الجزئي على أمراض الشيخوخة يعنيان زيادة أعباء المجتمع البشري إزاء المسنين وتغيير الخارطة العمرية في المجتمعات المعاصرة، مما ينعكس بدوره على مجالات الحياة الأخرى، فضلا بالطبع عن الكواليس المحتملة للعصر الجينومي المتمثلة في اللعب المتعمد في المخطط الجيني للبشر وصولا إلى عمليات الاستنساخ البشري، بما يحمله ذلك من مضامين علمية وأخلاقية وقانونية بل وحتى كارثية[8].

ولا ننكر أن هناك مخاوف وتساؤلات كثيرة تثيرها هذه التقنيات، فما هو مصير الأسرة هل هذه المؤسسة ستحتفظ بمعناها وشكلها الحالي، أم أن المستقبل سيحمل صورة جديدة لأسرة مختلفة تماما؟ وإذا استطاع العلماء أن يختصروا مدة الحمل في أجهزة خارج الرحم فهل هذا يعني أن معنى الأمومة سيتغير؟ ماذا سيحدث له؟ بل ماذا سيحدث لصورة الأنثى في المجتمعات التي نشأت منذ بداية وجود الإنسان على فكرة أن رسالتها في الحياة هي حفظ وتنمية البشري؟ ثم ما هو مصير الطفل نفسه؟ هل ينتسب إلى الأم أم إلى الجهاز الذي نما فيه؟ وإذا أصبحت عملية الحصول على طفل بهذه السهولة كما يعتقد البعض، ألا يؤدي هذا إلى ظهور ما يسمى بتجارة الرقيق؟ وإن كنا سنشتري الأجنة الحية ونبيعها فهل نحن في الطريق لاستحداث شكل جديد من أشكال العبودية؟ أضف إلى كل ذلك أن الإنسان في المستقبل لن ينظر إلى الأسرة كمؤسسة يضمن من خلالها استمرار وجوده بالإنجاب، فهو قادر على الحصول على ما يريد من خلال زيارته لأحد متاجر الأجنة[9].

كما ينص المجلس الأوروبي على أن الاستنساخ البشري تحويل الإنسان إلى آلة عن طريق التخليق المتعمد لبشر متطابقين وراثيا، هو أمر مناف للكرامة الإنسانية، وبالتالي فهو يمثل استخداما خاطئا للطب والبيولوجيا (علم الأحياء)[10]؛ بالإضافة إلى ذلك هناك نوع جديد من الحروب يجري التعامل فيه وهو حرب الجينات وهذا يعني الصراع الشديد بين الدول المتقدمة لامتلاك أكبر مخزون حيوي جيني وتوظيفه لتحقيق مصالحها فقط بغض النظر عن مصلحة الإنسان[11].

وأخيرا فإن عملية كهذه ستمس أهم مفهوم ارتبط بالإنسان وجاهد للمحافظة عليه، أعني قدسيته، فالإنسان كان من وجهة نظر كل الأديان أقدس المخلوقات، ولذلك تعتبر حياته أقدس من أن تسلب أو تعرض للعبث فهل سيحدث ذلك الآن؟ ألن يتغير معنى القدسية بدخولها في عصر الهندسة الوراثية والتكنولوجيا البيولوجية؟ لقد وجد الإنسان نفسه يتحول إلى مجرد مجموعة من رموز وراثية يمكن عن طريق حلها معرفة تكوينه الوراثي ومن ثم السيطرة عليه وهذا يعني أن قدسية حياته وأسرارها أصبحت عرضة لأن تنتهك، وهنا سيطرت عليه فكرة أثارت الرعب عند الكثيرين من المعارضين وهي أنه يمكن تخليق أو خلق الإنسان وبالتالي ندخل في المنطقة المحرمة دينيا، ثم إن مصيره ومصير الأجيال القادمة أصبح في يد العلماء...فهل يمكن أن نسمح باستمرار مثل هذه التجارب الوراثية أم أننا يجب أن نمنعها نهائيا؟ وهل الفوائد التي سنجنيها من هذا المجال تكفي لتبرير استمراره؟[12].

5. مساءلة البيو إتيقا للثورة البيوتكنولوجية:

تعنى البيوإتيقا بدراسة الكيفية التي يتعامل بها البحث العلمي التقني مع الكائن الحي من مختلف جوانبه، ويمكننا كذلك اعتبارها دراسة فلسفية للمسائل الأخلاقية الناتجة عن التطبيقات العلمية في مجال الطب والبيولوجيا على مختلف الكائنات الحية وفي مقدمتها الإنسان "فالباحث في علم الأحياء مطالب عندما يقوم بالتجارب بالتزام حدود معينة عندما يتعلق الأمر بالإنسان، فأخلاق المهنة تمنعه من التجارب على الإنسان الأمر الذي تعداه إلى تغييره"[13]؛ وهكذا فإننا نلمس رجوعا قويا من خلال البيوإتيقا إلى مسائلة الثورة البيوتكنولوجية وإفرازاتها بقيادة فيلسوف الأخلاق الذي يحاول التصدي والكشف عن المعضلات الأخلاقية المتعلقة بالهندسة الوراثية وقضاياها اللاأخلاقية المتعددة، ومن بين المجالات التي اقتحمتها البيوإتيقا لبيان مشروعيتها هي:

التدخل في الشخصية الإنسانية ومدى مشروعية ذلك.

التدخل في الجينوم البشري وما هي أضراره.

التدخل في مسألة الموت الرحيم أو ما يتعلق بإنهاء الحياة.

هل يمكن للطبيب أن يساعد مريضه على الانتحار بحجة المرض الذي لا علاج له؟

ما يمكن قوله هو أن التطورات الحاصلة في الميدان البيوتكنولوجي أدت غلى بروز العديد من المفاهيم التي انطوت تحت مفهوم واحد وهو ما بعد الإنسان "السيبورغ" الذي سيجسد الإنسان في كامل صورته المستقبلية والذي سيقضي عليه، من جهة أخرى الأمر الذي أد برجال الأخلاق خاصة الفلاسفة منهم إلى وضع حد إلى هذه التطورات البيوتقنية قبل أن تؤدي زوال الإنسانية معتبرين في ذلك حماية للإنسان وقدسيته هي أولى اهتماماتهم من خلال بلورة جهودهم في العديد من المجالات كان من أبرزها مجال البيواتيقا كمساءلة أخلاقية للتطورات البيوتقنية.

6. قيمية الفلسفة كضابط لتجاوزات الثورة البيوتكنولوجية

تعتبر هذه من أخطر المشاكل التي يمكن أن تواجهها الإنسانية من جراء الممارسات التقنية اللاأخلاقية للهندسة الوراثية إذا ل نقم بوضع حد لها قبل فوات الأوان، ويكننا القول أن هذه الهمة كان من المفروض أن تتولاها العلوم الإنسانية باعتبارها علوم تتمحور حول الإنسان وكل ما يتعلق به من جميع النواحي ولكن تبين في الأخير أن "أغلب المشاكل التي يعاني منها الإنسان ويواجهها من مشاكل ناجمة عن عجز العلوم الإنسانية في التحكم في السلوك البشري من جهة، ومن توجيه التطور العلمي من جهة أخرى وذلك لصعوبة فهم السلوك البشري والسيطرة عليه"[14]. لذلك كان لابد للفلسفة أن تعود للواجهة مرة أخرى، ذلك أن انفصال البيولوجيا عن العلوم الإنسانية والفلسفة سيؤدي إلى عواقب وخيمة على الإنسان الأسرة والمجتمع، فكانت مهمة الفلسفة "حماية مكانة الإنسان والحفاظ على القيم في ظل التطورات التكنولوجية بداية بفلسفة روسو ووجودية هيدجر، فلسفة كانط، هابرماس، ماركيوز"[15].

فإذا كانت مهمة الفلسفة هي البحث في حقائق الأشياء بشكل عام، فإنه من الضروري التوجه للدراسة الأخلاقية من وجهة رأي نقدية إذا ما راعينا تعريف الأخلاق بأنها مجموعة من القواعد والقوانين الضابطة للسلوك وفق معياري الخير والشر، فنجد أن الفلسفة لا يجب أن تقف عند مجرد دراسة الأحكام التقريرية للعادات الخلقية السائدة

بين الناس لأن مهمة الأخلاق في الفلسفة إنما تنحصر في وضع المثل الأعلى وبيان الكمال الأخلاقي وتشريع القانون، وبهذا فالأخلاق في الفلسفة هي نظرية المثل الأعلى أو هي الدراسة المعيارية للخير والشر، وهدف الفلسفة من هذه الأفكار النقدية التوجيهية للأخلاق هو حل لتلك المشكلات القيمية التي تعاني منها المجتمعات نقدا وتوجيها وتصويبا "باعتبار الفلسفة مطالبة بالانخراط في محادثة أخلاقية نقدية تعددية منفتحة تساهم فيها بشجاعة في إيضاح الجدل القائم اليوم حول الكثير من المعضلات"[16].

فالتطور الذي يشهده العالم اليوم وخاصة العلمي منه أفرز العديد من المشاكل عكس ما كان يهدف إليه ذلك التطور، هذه المشاكل التي مست الإنسان بالدرجة الأولى وبغيره من الموجودات بالدرجة الثانية هذا ما حتم على الفلسفة ضرورة قيامها بمساءلة أخلاقية تتسم بسمة النقد والتعدد والتفتح لهذا التطور بوصف الفلسفة المراقب والموجه للفكر والتطور وخاصة العلمي منه، فالتطور التقني والعلمي جعل العلوم تمتاز بالحركية والتغيير من حقبة زمنية إلى أخرى، وهذا التقدم الهائل لم يكن للعلم يوما رؤية تجعله يقر على حالة بفعل عدم وجود مبحث يختص بالعلوم وكذلك يفعل الاكتشاف المتغير، وهذا ما جعل الفلسفة تخوض في هذا الأمر من خلال تخصيص مبحث لفلسفة العلوم التي تركز اهتمامها بمنطق ومنهج العلم وخصائصه وشروطه المعرفية العلمية وكيفية تقدمها بالإضافة إلى كافة العوامل في عملية التقدم، حيث نجد أن فلسفة العلوم تقدم أسس معرفية ومنهجية لتشكل عقلا يساهم في حل المشاكل والعراقيل التي تعترضه تم إزالة العقبات التي تعرقل المسيرة العلمية التقدمية وبهذا فهي تقدم رؤية نقدية بناءة وهادفة لأجل حل مشكلة العلم مع محاولة بناء عقل علمي منشود وهو ما أكده الطبيب الابسيتولوجي "فرانسوا داغوني" بقوله "العلم لا يلتفت كثيرا إلى ماضيه فهو لا يفكر في ذاته إذا اطلعت الفلسفة بهذه الماهية وهي التفكير في ذات العلم وفي نهجه ومنطقه وفي خصائص المعرفة العلمية فهي مسؤولة كذلك عن تاريخ العلم ووضعيته، وعليه فالفلسفة العلم هي المعبر الرسمي والشرعي دون منازع"[17]؛ ذلك أن العلم المعاصر وقع ضحية انجازه فانبهر بها مما أدى به إلى نسيان أصله ومنهجه وسماته المتميزة له عن غيره فما كان للفلسفة سوى أن قامت بهذه المهمة، حيث نحتت حقلا داخل كيانها يعتني بالعلم وتاريخه ووضعيته هذا الحقل اصطلح عليه بفلسفة العلم.

فالثورة العلمية والتكنولوجية ساهمت في بناء الإنسان المادي الذي تجاوز كل القيم الأخلاقية، وهذا ما جعل العلوم والتقنيات تفقد مصداقيتها لدى الإنسان الذي لم يعد يبحث في هذه العلوم فقط، حيث اتجه الإنسان إلى البحث في أعماقه محاولا تفسير ما يجري بداخله ن مشكلات تؤرق الإنسان كمشكلة الحرية، الغاية، الأهداف، أي كل ما يتعلق بالإنسان دون استثناء، ومن هنا توجه الإنسان من ذلك العالم المادي إلى عالم وجود إنساني يحيى بداخله "لم نعد تثق بالعلم والتكنولوجيا ثقة ملؤها التقوى لأن الحياة الإنسانية أصبحت بحاجة إلى تبرير، وأضحت إمكانية الإنسان تطرح مشكلات كبرى مثل مشكلة الاختيار، مشكلة الحرية، مشكلة الأهداف"[18].

ذلك أن إفرازات التطور العلمي والتكنولوجي أدخلت الإنسان في متاهة ودوامة من الأسئلة حول هذه الإفرازات التي نزعت إنسانية الإنسان وقدسيته بسبب ممارساتها العلمية اللاأخلاقية ونجم عن ذلك ظهور جملة من المشاكل كان من بينها مسألة الحرية، والاختيار هذا أدخل الشك إلى النفوس وحطم تلك الصورة المرصعة والثقة الزائدة في العلم، وبهذا فإن مهمة الفلسفة لا تكمن أساسا في مسايرة التطورات العلمية وحركية العلوم التي لا تسفر على حالها، وبهذا فهي قريبة كل القرب من تلك التغيرات العلمية حرصا وأملا في التقدم، بل إن دور الفلسفة الأساسية إما التصويب أو التعديل أو التجاوز، لهذا فإن فلسفة العلم سيكون لها دور مهم في البحث العلمي لا تقصيرا في ذلك وإنما إضافة، فمهمة الفلسفة تكمن في أمران حسب "جورج كينغلهايم" "الأولى تتمثل في مواكبة حركية الفكر العلمي وديناميكية عن كثب، والحرص على الإطلاع المباشر على جميع اكتشافاته ومشاريعه وإنجازاته، والثانية تأتي مباشرة أي بعد جمع الوقائع والمعطيات وترتيبها، حيث تبدأ المهمة الحقيقية للفلسفة"[19] حيث نجد بأن الفلسفة بوصفها موجه ومراقب للفكر تضطلع بأداء جملة من المهام، فالمهمة الأولى تتمثل في مسايرة التطور العلمي وصيرورته ومن ثم تصحيح هفواته وانزلاقاته خاصة الأخلاقية منها ثم تأتي المهمة الأهم وهي التي تتمثل في النقد والتأصيل والترسيخ.

وإذا ما تتبعنا مسار التاريخ، فإننا نجد أن موضوع القيم لم يكن مشكلة في يوم من الأيام، حيث كانت الأمور تسير هادئة مطمئنة، لكن الثورة التكنولوجية العلمية

التقنية قادته إلى تغيرات خطيرة في المنظومة القيمية للمجتمعات وخصوصا القيم الأخلاقية، حيث شجعت على فساد تلك الأخلاق وانحلالها في ظل عالم مادي لا يعترف إلا بالمادة ذاتها، لهذا فمن الواجب والضروري تشجيع العلم والتقنية، لكن في حدود أخلاقية تسعى من ورائها العلوم إلى التقدم، لكن وفق معايير أخلاقية تحتكم وتطلع للفضيلة، وبذلك تنبذ الفساد الأخلاقي وهو ما دعا إليه الفيلسوف الفرنسي "جون جاك روسو الذي أكد على "ضرورة تخليق العلم والتقنية، باعتبار أن هذه التطورات لا حدود لها، وإهتجس خوفا من مآلات سوء استخدام العلم وغياب الفضيلة والحكمة وأثر ذلك على فساد الأخلاق"[20].

وهكذا فإننا نجد حسب توقع روسو أن العلم المعاصر شهد انفلاتا أخلاقيا ودليل ذلك ظهور أزمات ومزالق أخلاقية مست بجوهر الإنسان الجسدي منه والروحي مما استدعى إلزامية إعادة بعث المسألة الأخلاقية من خلال إعادة أخلقة العلم والتقنية التي استخدمها في هذه الممارسات، وما توجس روسو من نتائج العلم وسوء استخدامه لخير دليل على ذلك، حيث يرى أن غياب النموذج الأخلاقي والمتمثل في الفضيلة داخل حقل العلم سيفسد الأخلاق ويمس بالإنسان وكرامته و "يؤكد روسو بإيمان عميق أن التقدم قاد الإنسان إلى الاغتراب في الحضارة الحديثة وغلى انهيار القيم والأخلاق عندما تم التركيز على الشق المادي والتقني للحضارة"[21]؛ فالتطور العلمي الذي عرفته الحضارة الغربية حسب روسو نجم عنه مأزق أخلاقي مس بالإنسان ونزع منه إنسانيته وأصبح غريبا عن ذاته وعالمه وانهارت تبعا لذلك المنظومة الأخلاقية والقيمية وهذا بسبب تركيزها على المتطلبات الجسدية والمادية وإهمال المتطلبات الروحية.

ومع ظهور الفلسفة التطبيقية بدأ الجهد الفلسفي يتحول من جهد تأملي إلى جهد عملي، وهكذا تضطلع الفلسفة التطبيقية بالقضايا العلمية التي تطرحها الحضارة التقنية في مجالات السياسة والاقتصاد والاتصال والطب بدل أن تستنزف جهدها في البناء النظري المجرد واللعبة المفاهمية للمنطق واللغة وجوهر اشتغالها في ذلك هو سؤال الأخلاق أو الطموح إلى تخليق مجالات الحياة ليس على طريقة الأخلاق التقليدية ولكن من منظور الأخلاقيات التطبيقية التي تتطلب الحوار والنقاش والتعددية[22]؛ وقد دخلت البشرية

حقبة جديدة فريدة من نوعها بسبب تسارع وتيرة التقدم العلمي والتكنولوجي الذي حقق طفرات معرفية فتحت آفاقا جديدة أمام الإنسان المعاصر، ويعمل الفكر الفلسفي على اللحاق بالتسارع الذي تتحرك به العلوم والتقنيات وذلك بترك القضايا الفلسفية المكررة والمتجاوزة التي شغلته منذ النصف الثاني من القرن الماضي.

ولا ننكر أنه وبسبب الطفرات العلمية الكبرى في مجال العلوم الفيزيائية والبيولوجيا المعاصرة والمعلوماتية والاتصال بدأت تتشكل حقبة فلسفية جديدة تنشطها جماعات البحث في ميادين حياتية مختلفة وتهتم بمواضيع الفلسفة السياسية وفلسفة البيئة وفلسفة الطب والبيولوجيا[23] لأن إزاء هذا الفتح الجديد وجدت المجتمعات البشرية نفسها مجبرة على إعادة النظر في قيمها الأخلاقية ومبادئها الاقتصادية لوضع التشريعات المناسبة للحد من غلو الإنسان في عدوانيته ولتوجيه دفعة هذه الاكتشافات نحو رفاهية المجتمع والارتقاء بمستوى الحياة.

خاتمة:

في الأخير نصل إلى نتيجة مهمة وهي نحن لا ننكر ما وصلت إليه البشرية من تطور بفضل العلم والتكنولوجيا لأنه من المستحيل أن نجد شخصا اليوم يمكن له أن يعارض فكرة الاستفادة مما يقدمه العلم أو البيوتكنولوجيا، وهذا من أجل التغلب على كل أمراض العصر كالسرطان وأمراض الدماغ والشيخوخة، كما أنه لا أحد يمكنه رفض إطالة مدة الحياة والعيش بصحة جيدة، لا نستطيع رفض الذكاء الصناعي، ولكن في نفس الوقت كل هذه القضايا تحتاج إلى أخلقة، نحتاج إلى أنسنة جديدة للإنسان، لا يمكن أن نجاري العلم وخصوصا البيولوجيا الحالية التي تدعونا إلى النظر إلى الإنسان كموضوع مادي معطى في العالم الخارجي، نحن نقول كما قال هابرماس مازال من حق الفلسفة ومن ثم الأخلاق التدخل وإعطاء الرأي، لا يمكنها الانسحاب لصاح العلم ليبقى وحده من يقرر مصير الإنسان.

الهوامش:

1 : خالد أودينة، الفلسفة الحيوية البرغسونية بعد الثورات البيوتكنولوجية، المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات، الجزائر، المجلد3، العدد9، ديسمبر2019، ص46.

2: المرجع نفسه، ص46-47

3: المرجع نفسه، ص47

4: أندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية، ترجمة أحمد خليل، المجلد الأول، منشورات عويدات، ط2،لبنان، 2001، ص1429.

5 : إيهاب عبد الرحيم محمد، الإطار الأخلاقي لأبحاث الجينوم والهندسة الوراثية البشرية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد35، العدد2، ديسمبر2006 ، ص272.

6: فوزية علوان وسلمى برحايل، قراءة في الأخلاق العربية عبد الحليم عطية نموذجا، دفاتر فلسفية، تصدر عن كرسي اليونسكو للفلسفة، فرع جامعة الزقازيق، مصر، ص86.

7: المرجع نفسه، ص ص87-88.

8: مصطفى معرفي، البحث عن الكمال البشري، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد35، العدد2، ديسمبر2006، ص11 .

9: إيهاب عبد الرحيم محمد، الإطار الأخلاقي لأبحاث الجينوم والهندسة الوراثية البشرية، مرجع سابق ، ص272.

10: المرجع نفسه، ص29

11: وجدي عبد الفتاح سواحل، الهندسة الوراثية والتقنية الحيوية...رؤية عربية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 35، العدد2، ديسمبر2006، ص.34

12: إيهاب عبد الرحيم محمد، الإطار الأخلاقي لأبحاث الجينوم والهندسة الوراثية البشرية، مرجع سابق، ص272.

13: محمد جديدي، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص65.

14: الدراجي زروخي، إشكاليات أساسية في مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، دار صبحي، غرداية –الجزائر- ص ص228-229.

15: المرجع نفسه، ص229.

16: محمد جديدي: البيوتيقا ورهانات الفلسفة القادمة، مجلة مؤمنون بلا حدود، 10 ماي 2016، ص14.

17: علي حرب، موسوعة الأبحاث الفلسفية للرابطة العربية للأكاديمية الفلسفية، الفلسفة الغربية المعاصرة، ج2، منشورات ضفاف، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف الرابطة المصرية الأكاديمية للفلسفة، 2013، ص1440.

18: روجي غارودي، نظرات حول الإنسان، ترجمة: يحيى هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1983، ص12.

20: رشيد دحدوح، تاريخ وفلسفة العلوم البيولوجية والطبية عند جورج كنغليهم، أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، 2006، ص ص387-388.

20: خديجة زتيلي: الأخلاقيات التطبيقية جدل القيم والسياقات الراهنة للعلم، دار الأمان، الرباط منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005، ص258.

21: المرجع نفسه، ص258.

22: مصطفى كيحل، مدخل إلى قضايا الفلسفة التطبيقية، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، ط1، 2018، ص3-5.

23: مصطفى كيحل واخرون، الأخلاقيات التطبيقية والرهانات المعاصرة للفكر الفلسفي، إشراف وتنسيق: ، أعمال ملتقى منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2016، ص9.

*** *** ***